بخل المتنبي بين الحقيقة والتجني

ثائر سمير حسن الشمري

كلية التربية الاساسية- جامعة بابل

كثيرة هي القصص التي نُسِجَتْ حول حياة المتنبي وشعره، فأتهم بادعاء النبوة، وبأنه صاحب قرآن أُنزل عليه عن طريق الوحي،[١] وغير ذلك من القصص الأخرى .

غير انني في بحثي هذا سأحاول تسليط الضوء على قضية مهمة، تتعلق بحياة المتنبي،ألاَ وهي قصة بخله التي أُثيرت منذ وقت مبكر، وأستطيع القول انها استمرت حتى عصرنا هذا، من دون ان تخضع للتدقيق في صحة نسبتها للشاعر.

أمّا عن السبب الذي دفعني لدراسة هذا الموضوع- على الرغم من انه لا يتعلق بقضية فنية تخدم الشعر ونقده- هو لأنني لم أجد من الباحثين – قديماً وحديثاً- مَن يتصدى لدراسة هذه القضية المهمة من حياة الشاعر، للوقوف على أبعادها الحقيقية ، من أجل معرفة صدق هذه الدعوى أو بطلانها .

فلم ترد عن بعض الباحثين إلاّ اشارت مبتسرة حول هذه التهمة، لا تكاد تصل الى حقيقة الأمر بقدر ما تثيره لدى المتلقي من تساؤلات وشكوك فيما يتعلق بهذه المسألة، وسأحاول اثبات هذه الاشارات في اثناء بحثي هذا .

لذا رأيت من الضروري الوقوف على كل كبيرة وصغيرة تتعلق بهذه المسألة (البخل) التي ارتبطت بالشاعر، من خلال المصادر القديمة والحديثة، واخضاع القصص - التي وردت لاثبات بخل المتنبي- للنقد العقلي والمنطقي والتاريخي ، وذلك من أجل الخروج بنتيجة واضحة سواء أكانت ايجابية أم سلبية، محاولاً بذلك القطع بصحتها إن كانت كذلك حقاً، أو بخطئها إن كانت مجرد تهمة لاصحة لها، وذلك من خلال ما سيرد من الأدلة والقصص التي وجدناها في اثناء بحثنا عن هذه القضية .

ولا يفوتني أن أذكر بأني سأكون حيادياً في دراستي لهذا الجانب المهم من جوانب حياة المتنبي ، وسأقول كلمتي بما يتوافق مع المنهج العلمي الرصين، الذي يبتعد عن الأهواء والمشاعر، لأننا نبحث عن الحقيقة أينما كانت، وفيم كانت، ولا ننحاز في ذلك لمن نحب، أو خلافه على حساب الحقيقة العلمية وما يتعلق بها .

لقد كَثُرَتْ الأقوال في بخل المتنبي، فابن فورّجة لم يكن يرى في الشاعر ما " يشينه ويسقطه إلاّ بخله وشرهه على المال"[٢]، وهو يأتي بقوله هذا من دون أدلة تؤكد زعمه الذي ذهب اليه، وانما يكتفي بترديد ما ورد عن غيره من آراء لم تخضع للمختبر النقدي .

والشيء نفسه يقال عن ابن نباته المصري حين ذكر خصال المتنبي، والتي كان في جملتها البخل الذي عُرِفَ به.[٣]

فما الأدلة على شره المتنبي على المال ؟ وما الأدلة التي تؤكد بخله؟ هذا ما سنتعرفه من خلال البحث .

---

[١] ينظر : نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٨/١٩٨ .

[٢] الصبح المنبي عن حيثية المتنبي/ ٩٥ .

[٣] ينظر: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون/ ٣٧- ٤٤ .

ان الذين اتهموا الشاعر بالبخل، والذين جاءوا بعدهم، ذكروا مجموعة من القصص التي تؤكد زعمهم هذا ، ليثبتوا هذه الدعوى، وسأحاول اخضاع هذه القصص للنقد بعد التمثيل بها، لمعرفة صحتها، أو خلاف ذلك نلتمس الأدلة على بطلانها، وانها لم تكن إلاّ مجرّد قصص مُلفقة حسداً وكيداً للشاعر .

ومن تلك القصص ما رواه بعض الأدباء، فقد قال أبو الفرج عبد الواحد بن نصر الببغاء: " واذكر ليلة ، وقد استدعى سيف الدولة بَذْرة، فشقها بسكين الدواة ، فمدّ أبو عبيد الله ابن خالويه النحويّ جانب طيلسانه، وكان صوفاً أزرق، فحثافيه سيف الدولة شيئاً صالحاً،

ومددتُ ذيل دُرَّاعتي ، وكانت ديباجا، فحثا اليّ فيها ، وأبو الطيب حاضرٌ، وسيف الدولة ينتظر منه أن يفعل مثل فعلنا، أو يطلب شيئاً منها ، فما فعل ، فغاظه ذلك، فنثرها كلها. فلما رأى المتنبي انها قد فاتته زاحم الغلمان يلتقط معهم ، فغمزهم عليه سيف الدولة فداسوه، وركبوه، وصارت عمامته وطُرطُوره في عنقه، واستحى، ومضت له ليلة عظيمة، وانصرف".[1]

ان الشكوك تكاد تحيط بهذه القصة من وجوه عدّة، فهي مليئة بالمغالطات، وبأمور لا يمكننا أن نتصوّرها، فأول وجوه الشك فيها ان هذا الفعل لا يمكن أن يصدر من ملك مثل سيف الدولة ، ملك عُرف بشجاعته، وهمته غير الاعتيادية في الحياة ، وقام بحروب التحرير المتوالية ضد الروم والبيزنطيين، فهل يُعقل ان يُحول سيف الدولة مجلسه الى مثل هذه التفاهات؟

انني لا اعتقد ان يفعل سيف الدولة مثل هذا الفعل، لأنه أليق بالجهلاء لا بالملوك .

ثم منذ متى والغلمان يجالسون الملوك والأسياد حتى ينثر عليهم سيف الدولة تلك الدنانير، ويحول مجلسه الى مهزلة لا تليق حتى بمجالس السوقة وعامة الناس ؟

ولو كان هذا الكلام صحيحاً لبدا سيف الدولة غير محترم ، لأن غلمانه يركب بعضهم بعضاً في مجلسه، وفي حضرته، فلا مهابة له عندهم، حتى وان كان هو الذي غمزهم لذلك التصرف الغريب وغير المعقول.

هذا من جانب، ومن جانب آخر عُرف المتنبي بأنفته وكبريائه، ومثل هذه الأنفة تمنعه من فعل هذا الشيء المهين . هذا لو افترضنا صحة هذه الرواية- وذلك واضح من خلال طرح السؤال الآتي :

إن كان المتنبي لم يفعل فعل ابن خالويه، وأبي الفرج الببغاء، وهما من الوجهاء في مجلس سيف الدولة، ولم يطلب منه شيئاً كما طلبا، فهل يُعقل أن يزاحم الغلمان على تلك الدنانير المعدودة؟ ويعرّض نفسه لتلك المهانة؟

ولا ننسى ان المتنبي كان يمتلك من الأموال ما يكفيه، وما يمنعه من ذلك التصرف الدنيء، فعطايا سيف الدولة لا تكاد تتوقف عنه .

أما القصة الأخرى التي أُثيرت حول بخله ، وتناقلها الخلف عن السلف، فهي القصة التي رواها أبو بكر الخوارزمي عنه، إذ قال: " فحضرت عنده (أي عند المتنبي) يوماً بحلب وقد أُحضر مالاً من صِلات سيف الدولة ، فصبَّ بين يديه على حصير قد افترشه ، ووُزن وأعيد في كيس ، واذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال قد تخللت خلل الحصير، فأكبَّ عليها بمجامعه ينقرها ويعالج استنقاذها منه، ويشتغل بذلك عن جلسائه ، حتى توصّل الى اظهار بعضها ، فتمثل ببيت قيس بن الخطيم [....] :

تبدّت لنا كالشمس بين غمامة بدا حاجبٌ منها وضنّت بحاجب

---

[1] انباه الرواة على انباه النحاة ١/ ٣٢٧، وينظر: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي / ٩٢ .

ثم استخرجها ، وأمر باعادتها الى مكانها من الكيس، وقال: انها تحضر المائدة "[١] .

في هذه القصة دليل قاطع على عدم بخل المتنبي من خلال القصة نفسها، ولكن قبل أن أذكر هذا الدليل، أورد حكاية من كتاب (البخلاء) للخطيب البغدادي ، قال : " سمعت اعرابياً وقد وصف رجلاً ، فقال: لقد صغُر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه ، وكانما يرى بالسائل اذا رآه ملك الموت اذا أتاه"[٢] .

اذن البخيل يخاف من السائل خوفه من ملك الموت، فلو كان المتنبي بخيلاً فعلاً لما صبَّ ذلك المال ووزنه امام جلسائه ، بل لكان تركه لحين انصرافهم، ثم يفعل ذلك الفعل، لأن البخيل- وكما هو معروف – لا يعرض أمواله أمام جلسائه خوفاً من سؤالهم له ، فالمتنبي حين عرض تلك الأموال أمام الحاضرين ، دلل على انه لا يخاف من سؤالهم ، وهذا دليل على كرمه لا بخله .

ثم ان المتنبي كان على قدر كبير من الذكاء والفطنة، واستطاع بوساطتهما انكار التهم التي أثيرت حوله في حياته، والذي يتمتع بمثل هذه الموهبة لا يمكن أن يعطي لأعدائه حجة ليطعنوه بها، هذا لو سلمنا ببخله، فكان بامكانه ألاّ ينشغل عن جلسائه باستنقاذ تلك القطعة الصغيرة جداً من الأموال، وينتظر خروجهم، ثم يفعل تلك المهمة الغريبة .

ولنا الان ان نسأل : كيف علم الخوارزمي ان تلك القطعة التي اختفت تحت الحصير كانت أصغر ما يكون من ذلك المال ؟

ثم كيف تحضر المائدة وهي على صغر شأنها هذا ؟

ان هذه الأدلة وغيرها مما سيأتي تبرز على قدر من الوضوح مدى التعصب على هذا الشاعر، ومقدار الحسد لما حققه من عظيم الشأن في حياته العامة ، وحياته الشعرية على السواء .

وهناك قصة أخرى انفرد بها ابن أبي حجلة المغربي صاحب كتاب(سكردان السلطان)، وهي قصة تكاد تكون مضحكة الى درجة كبيرة، لأنها لا تنطبق مع ما عُرف عن الشاعر من سلامة المنطق، وفصاحة الكلام، يقول صاحب القصة: " وكان [المتنبي] على كثرة ماله وأخذ الجوائز العظيمة على جانب من البخل، حكي عنه، انه طلب ندافاً ليعمل له جباباً لغلمانه، ولحفاً وفرشاً، فأقام عنده سبعة أيام، فأعطاه سبعة قراريط ذهباً، فصعب ذلك عليه، فقال له: كم ظننت اني أعطيك ، فقال: سبعة دنانير، فقال له المتنبي : والله لو وضعت احدى رجليك على طور سينا والأخرى على طور زيتا ، وتناولت قوس قزح وقائمة العرش بيدك، ونفدت قطن الغمام على جباب الملائكة، أعطيتك سبعة دنانير، وذكر سبعة أشياء يفتخر بها في بيت واحد ، وهو :

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم " [٣]

انه لمن الطريف ان نقول: ان ابن ابي حجلة المغربي كان قد توفي سنة (٧٧٦هـ)، وهو أول من روى هذه القصة على حد علمنا، فاذا ما علمنا انه جاء بعد المتنبي بأربعة قرون، حق لنا أن نسأل : من اين جاء بهذه القصة؟ ومَن الذي حكاها له بعد هذه المدة الطويلة؟

---

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ١/ ١٣٦، وينظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي/ ٩٣-٩٤ ، والوافي بالوفيات٦/ ٣٤٢ .

[٢] البخلاء / ٥٣ .

[٣] سكردان السلطان / ١٨٨ ، نقلا عن كتاب (أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين) / ٢٣١ .

ثم ان المتنبي فارس الكلمة العربية، وشاعر العرب الأول لا يمكن أن يتحدث مع النداف بمثل ذلك المنطق الغريب، فلم يُعرف عنه ذلك في يوم ما، حتى من أعدائه ومنافسيه، فهم كانوا يحسدونه على فصاحته، واتيانه بالعجيب والنادر دائماً، وذلك يدل دلالة قاطعة على ان هذه الراوية مؤلفة تأليفاً دقيقاً للنيل من الشاعر.

ومما يؤكد صحة ما ذهبنا اليه كثرة تكرار العدد (٧) سبعة في هذه القصة، فالنداف أقام عند المتنبي سبعة أيام ، وأعطاه الشاعر سبعة قراريط ، وظن النداف انه سيعطيه سبعة دنانير، وذكر المتنبي سبعة أشياء يفتخر بها في بيت واحد ، كل ذلك مما لا يمكن ان يقع مصادفة في أثناء الحديث الذي دار بينهما، بل يؤكد ذلك انه من خيال النساج الذي نسج هذه القصة الغريبة.

ولا ننسى الفرق الكبير في الثمن الذي أعطاه المتنبي للنداف، وما كان يتوقعه النداف، فليست هناك موازنة بين القراريط السبعة، والدنانير السبعة، وذلك دليل آخر يؤكد بطلان هذه الرواية، فضلاً عن ذكرها في هذا المصدر من دون غيره، على الرغم من كثرة كتب التراجم التي تحدثت عن حياة أبي الطيب وصفاته.

واذا ما سلمنا بصحة هذه القصة، فاننا نجد فيها دليلاً قاطعاً على كرم المتنبي لا على بخله، ذلك لأن البخيل لا يملك غلماناً، ويكون مسؤولاً عن طعامهم وكسوتهم ، وفوق ذلك يعمل لهم جبابا ولحفاً وفرشاً، وانما الكريم من يفعل ذلك، فالبخيل لا يطيق أن يأكل معه أحد، حتى لو كانت أمه .

ان هذه القصص أظهرت كرم الشاعر ، في الوقت الذي أرادت اظهار بخله، وكلمة الحق تأبى إلاّ أن تظهر ، على الرغم من كثرة من يريد عدم اظهارها، واظهار كلمة الباطل .

وهنالك قصة أُخرى رُويت عن بخل الشاعر، وتقول تلك القصة: " ان ابا الطيب المتنبي دخل مجلس ابن العميد، وكان يستعرض سيوفاً، فلما نظر أبا الطيب نهض من مجلسه، وأجلسه في دسته، ثم قال له: اختر سيفاً من هذه السيوف، فاختار منها واحداً ثقيل الحلى، واختار ابن العميد غيره. فقال كل واحد منهما: سيفي الذي اخترته أجود، ثم اصطلحا على تجربتهما. فقال ابن العميد : فبماذا نجرّ بهما؟ قال أبو الطيب في الدنانير يؤتى بها، فتُنضد بعضها على بعض، ثم يُضرب به ، فان قدّها فهو قاطع، فاستدعى ابن العميد عشرين ديناراً فنُضّدت ، ثم ضربها أبو الطيب فقدّها ، وتفرّقت في المجلس فقام من مجلسه المفخم يلتقط الدنانير المتبددة، فقال ابن العميد: ليلزم الشيخ مجلسه، فان أحد الخدّام يلتقطها ويأتي بها اليك . فقال بل صاحب الحاجة أولى"[1]

ان النقد الذي يمكن أن يوجه الى هذه القصة لا يكاد يختلف عن النقد الذي وجه الى القصص السابقة ، إذ لا يُعقل ان شاعراً مثل المتنبي يحصل على عشرات الآلاف من الدنانير- بسبب انشاده بعض القصائد لممدوحيه – يترك مجلس ابن العميد، وينحني على الأرض ليلتقط عشرين ديناراً فقط، علماً ان من حق هذا المجلس طالما حلم المتنبي ان يجلس فيه في يوم من الأيام، فكيف يتركه، ويتخلى عنه من أجل عشرين ديناراً.

ان ذلك التصرف لا يتناسب مع ما عُرف عن الشاعر من الكبرياء المتعالية التي كان يتميز بها، وهو الذي رفض من قبل تقبيل التراب بين يدي سيف الدولة الحمداني في حلب، مع انه صاحب المعجزة لم تكن تتوقف عنه، سواء أكانت تلك العطايا مادية أم معنوية.

ويبدو ان أعداء الشاعر حاولوا – بهذه القصص – ان يحولوا كل ما طرحه الشاعر من قصائد – عن شعره- عن وجهتها الحقيقية، فجاءوا بما يناقض دعوته، وطموحه في الملك والسيادة ، وترفعه عن محاولين اثبات حبه للمال وحسب من دون تلك السيادة والملك.

---

[1] الصبح المنبي عن حيثية المتنبي / ٩٣ .

ولم يكتفِ نساجو القصص بهذا القدر ، وانما أرادوا تأكيد بخله ، وذلك من خلال جعله سبباً مباشراً لقتله، ظناً منهم ان " الخفراء جاءوه وطلبوا منه خمسين درهماً ليسيروا معه، فمنعه الشحّ والكبر"[١]، فتقدموه فوقع ما وقع[٢].

وبذلك تناسى رواة هذه القصص ملابسات حياة المتنبي كلها ، فجعلوا سبب مقتله عدم اعطائه خمسين درهماً للخفراء، أفيعقَل هذا ؟

ان هؤلاء تناسوا هجاءه لضبة ابن أُخت فاتك بن أبي جهل الأسدي، وتوعّد الأخير له، وكذلك هجاءه المرير لكافور، ومحاولة كافورقتله، وتناسوا أموراً كثيرة لا مجال لذكرها كلها،

فليس هدف البحث جرد هذه الملابسات التي كانت السبب الحقيقي لمقتله ، وانما أردنا أن نؤكد زيف هذا الادعاء .

أما اذا سلمنا بصحة رفضه اعطاء اولئك الخفراء ما طلبوه منه، فلا أعتقد ان الشحّ كان السبب أبداً، بل كبرياؤه وكرامته كانتا سببين حقيقيين لعدم اعطائهم ما أرادوه منه، فهو يرفض ان يصحبه الخفراء ، لانه صاحب الأبيات الشعرية الرائعة التي تمجّد الشجاعة وأهلها، تلك الشجاعة التي كان يفتخر بها طوال حياته.

ان مخترعي هذه القصص أرادوا تأكيد بخل الشاعر بطريقة أو بأخرى ، وذلك ليكون لقصصهم مصداقية أكثر ، لذا نراهم يضعون قصة لسبب بخل المتنبي على لسانه هو ، وبذلك يكون بخله أمراً مفروغاً منه، ومصدقاً عليه إن صحّ التعبير – ومختوماً بختمه هو نفسه، لذا نجد هذه القصة عن سبب بخل أبي الطيب ، " قال أبو البركات بن أبي الفرج المعروف بأبي زيد التكريتي الشاعر، قال : بلغني انه قيل للمتنبي قد شاع عنك من البخل في الآفاق ما قد صار سمراً بين الرفاق ، وأنت تمدح في شعرك الكرم وأهله، وتذم البخل وأهله، ألست أنت القائل:

ومَن يُنفق الساعات في جمع ماله

مخافة فقر فالذي فعل الفقرُ

ومعلوم ان البخل قبيح، ومنك أقبح، لأنك تتعاطى كِبْر النفس، وعلوّ الهمّة، وطلب الملك، والبخلُ ينافي سائر ذلك، فقال: ان لبخلي سبباً، وذلك اني أذكر وقد وردت في صباي من الكوفة الى بغداد ، فأخذتُ خمسة دراهم في جانب منديلي، وخرجتُ أمشي في أسواق بغداد، فمررتُ بصاحب دكان يبيع الفاكهة فرأيت عنده خمسة [كذا] من البطيخ باكورة، فاستحسنتها ونويت أشتريها بالدراهم التي معي ، فتقدمت اليه وقلت: بكم تبيع هذه الخمسة [كذا] بطاطيخ، فقال بغير اكتراث : اذهب، فليس هذا من أكلك، فتماسكت معه وقلت: ايها الرجل دع ما يُغيظ واقصد الثمن، فقال: ثمنها عشرة دراهم،فلشدة ما جبهني به ما استطعت أن أخاطبه في المساومة ، فوقفت حائراً، ودفعت له خمسة دراهم، فلم يقبل، واذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان، ذاهباً الى داره ، فوثب اليه صاحب البطيخ من دكانه، ودعاله، وقال له: ياسولاي، هذا بطيخ باكور، باجازتك أحمله الى منزلك. فقال الشيخ: ويحك بكم هذا؟ قال: بخمسة دراهم. فقال : بل بدرهمين. فباعه الخمسة [كذا] بدرهمين، وحملها الى داره، ودعاله، وعاد الى دكانه مسروراً بما فعل ، فقلت له: ياهذا ، ما رأيت أعجب من جهلك ، استمتَّ عليَّ في هذا البطيخ، وفعلتَ فعلتك التي فعلت، وكنت قد أعطيتُكَ في ثمنه خمسة دراهم، فبعته بدرهمين محمولاً. فقال : اسكت هذا يملك مئة ألف دينار. فعلمت ان الناس لا يكرمون أحداً اكرامهم منْ

---

(١) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي / ٦٠ .

(٢) ينظر: مواسم الأدب وآثار العجم والعرب ١/ ١٥٢ .

يعتقدون انه يملك مئة ألف دينار ، وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون : ان ابا الطيب قد ملك مئة ألف دينار"[١].

ان اقتباسي لهذا النص الطويل يستوعبه طبيعة الموضوع الذي أبحث فيه، فالوقوف على النص بأكمله يتيح لي كشف الهنات الواضحة، والطعنات المسمومة التي امتلأ بها ، ومن خلال القراءة المتفحصة لهذا النص بدت لنا فيه بعض الملاحظات :

ان أولى تلك الملاحظات هي اننا لا نعرف من هو الذي صارح المتنبي بحقيقة بخله، فربما كان النص بأكمله من تصور الشاعر المعروف بأبي زيد التكريتي، أو ان القصة نُسِبتْ على لسانه.

ثم ان هناك الكثير من الباعة الذين يبيعون البطيخ غير هذا البائع ، فليس هناك داعٍ لأن يتماسك المتنبي معه اذا كان ثمن بطيخاته مرتفعاً عن غيره، وكان بمقدوره أن يشتري من سواه ، فضلاً عن أنه ليس من حقّ صاحب الدكان ان يتكلم بهذه اللهجة الحادة والساخرة مع زبائنه، فذلك مما لا يُعقَلُ مطلقاً .

وليس من المعقول أيضاً أن يبيع ذلك الرجل البطيخات بدرهمين ، ولا يبيعها بخمسة دراهم، لا لشيء إلاّ لأن من اشتراها يملك ألف دينار،فذلك لا ينفع صاحب الدكان في شيء سوى البيع بخسارة .

وأيّ رجل هذا الذي يترك دكانه بلا حارس، ويذهب حاملاً البطيخات الى بيت التاجر؟

والأغرب من ذلك ان ينتظره المتنبي لحين عودته ، ويحاججه على تصرفه الغريب، فكل ذلك غير معقول ، ولا ضرورة لحدوثه، مما يجعلنا نشك في صحة هذه القصة التي وردت على لسان المتنبي نفسه.

ويبدو من الغريب أن يعترف الشاعر ببخله الى أحد الناس، مع ان البخل يُعدّ منقصة للشاعر ، وليس مفخرة، في الوقت الذي عُرِفَ فيه المتنبي بالأنفة، وعزّة النفس، والابتعاد عن كل أمر دنيء .

وهل يُعقَلُ ان المتنبي كان يحب المال الى هذه الدرجة التي يرغب فيها أن يسمع الناس يقولون : انه يمتلك ذلك المبلغ ؟

ان ذلك على العكس تماماً مما عُرِفَ عن الشاعر من صفات مخالفة لهذه الصفة ، وهذا ما سنتعرفه من خلال حياته، وأشعاره التي سنأتي عليها فيما بعد.

أما الآن ، وبعد أن أخضعنا تلك القصص للنقد المتفحص ، وأثبتنا عدم صحتها بالأدلة العقلية والمنطقية والتاريخية ، لا بد لنا أن نبحث عن حقيقة بخل الشاعر من جانب غير ذلك الجانب، فنتابع مشاهد حياته، وتصرفاته مع من حوله لنتعرف ان كان بخيلاً فعلاً، أم على خلاف ذلك، نُثبت عدم بخله من خلال الأدلة أيضاً .

ان الجرأة التي تميّز بها المتنبي كانت تستطيع أن تصل به الى قصور الخلفاء العباسيين لو أراد هو ذلك، فيمدحهم ، وينال جوائزهم الثمينة ، ولا سيما انه صاحب المقدرة الشعرية العالية التي لا يكاد يصل اليها أحد من الشعراء المعاصرين له، وعلى الرغم من ذلك لا نراه يمدحهم ، ولا يفكر في ذلك مطلقاً، لأنه رأى عجزهم عن تحقيق آمال العرب ، وآماله هو بالذات ، فلم يكونوا إلاّ أدوات مسخرة بيد الأعاجم وسواهم، لذا لم يرغب في مديحهم ، لانهم في نظره ليسوا أهلاً لذلك المديح، ولأنه صاحب قضية سامية يريد توصيلها، والدعوة لها من خلال شعره .

---

[١] الصبح المنبي عن حيثية المتنبي / ٩٥- ٩٦ .

ولو كان بخيلاً لما فكّر في ذلك كله، وانما سيكون تفكيره منصباً على ما سيحصل عليه من أموالهم فيما لو قام بمدحهم، ولا سيما اذا ما علمنا ان " الحريص البخيل يضحي بكرامته وبأعز شيء لديه في سبيل الحصول على المال. وما كان كذلك أبو الطيب "[١]

ومما يؤكد عدم بخله أيضاً انه لم يرغب عن مدح الخلفاء فحسب، وانما رفض مدح كثير من الشخصيات المهمة، والتي كان لها شأن كبير في العلم والأدب والسياسة ، " فيحكى ان الصاحب أبا القاسم طمع في زيارة المتنبي اياه بأصبهان ، واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو إذ ذاك شاب، وحاله حَويلة ولم يكن استوزر بعد ، وكتب اليه يلاطفه في استدعائه، ويضمن له مشاطرته جميع ماله، فلم يَقِمْ له المتنبي وزناً، ولم يُجبه عن كتابه ولا الى مراده " [٢]، ودفع ذلك الرفض بالصاحب بن عباد لأن يتخذه " غرضاً يرشقه بسهام الوقيعة، ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته، وينعى عليه سيئاته" [٣] .

وفي حقيقة الأمر – وكما هو معروف– لم يرفض المتنبي مدح الصاحب بن عباد فحسب، وانما رفض – كذلك– مدح (ابن حنزابة) وزير كافور في مصر ورفض مدح الوزير المهلبي في بغداد، مما أدى بهما الى شن الحرب عليه وتأليب الشعراء لهجائه كما حصل في بغداد ارضاء للمهلبي، وكذلك دفعا الأدباء لتأليف الكتب حول شعره، واثبات سرقاته.

كل ذلك يؤكد بدلالة واضحة عدم بخل الشاعر، وفي الوقت نفسه يؤكد انه لم يمدح لأن الحكام والأمراء كانوا يسألونه بأنفسهم بأن يمدحهم كما توهم عبد المجيد لطفي[٤]، بل نراه يمدح من يراه مستحقاً لمديحه أولاً، كما حصل في مدحه لفاتك المجنون، أو مَن يظن الشاعر بأنه سيحقق له طموحاته التي كان يسعى الى تحقيقها ثانياً، كما حصل في مدحه لكافور الاخشيدي .

وفي ذلك كله ردٌ على الخوارزمي الذي كان يصف المتنبي وصفاً مؤلماً ، إذ يقول عنه: " ولو رأى الطمع في جحر فأرة لدخله، ولو أتاه الدرهم من أست كلب لما غسله"[٥].

ولو كان كذلك فعلاً لما ترفّع عن مدح أولئك كلهم ، ولكن الحسد يدفع الناس الى قول تفاهات كهذه ، مع علمنا ان هذه الأقوال غير لائقة بأدباء كبار مثل الصاحب بن عباد والخوارزمي وغيرهما .

واذا كان المتنبي بخيلاً لما ترك امارة سيف الدولة، ثم لما ترك من بعده كافوراً ، وكذلك عضد الدولة، وابن العميد، وكان باستطاعته ان يبقى مع أيّ منهم ليجمع ما يريد من الأموال، وفي ذلك كله ما يؤكد أنه لم يكن كذلك ، بل كان يريد شيئاً أكبر من ذلك، وقد أعرب عن هذا الطموح بنفسه حين قال:

يقولون لي ما أنت في كلّ بلدةٍ وما تبتغي ما ابتغي جلّ أن يسمى[٦]

وقد خصص الدكتور هادي نهر جانباً من كتابه للدفاع عن الشاعر فيما يتعلق بهذه التهمة ، إذ قال: " أما ما أثير حول بخله وحبه للمال فليس في ديوانه ما يؤيد ذلك ، وقد أساء الباحثون فهمه من هذه الزاوية فوصفوا دعوته الى حسن التدبير،وتوفير المال للغايات العليا، بالبخل والجشع وحب المال.ومما يؤيد عدم بخل

---

[١] حزن العظمة في المتنبي فضيلة خلقية / ٧١ .

[٢] يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ١/ ١٣٨ .

[٣] م.ن ١/ ١٣٨ .

[٤] ينظر: المتنبي فارس الفكر العربي / ١٢ .

[٥] رسائل أبي بكر الخوارزمي/ ١٤ .

[٦] شرح ديوانه ٤/ ٢٣٣ .

المتنبي سيرة حياته وهو صاحب الغلمان والأهل والتلاميذ الذين درسوا عليه ديوانه في منزله،وجلسوا على بساطه يأكلون من زاده"[١].

اذن لم يكن المتنبي مهتماً بجمع الأموال قدر اهتمامه بشيء أسمى منها بكثير ، لذا نراه يطالب ممدوحيه- في كثير من الأحيان- بتحقيق أحلامه ، وما كان يطمح اليه، ولم يكن راضياً بما كانوا يعطونه من الاموال، لأنها ليست مراده الحقيقي الذي يمدح من أجله، " فكان يرى انه يعطي لممدوحيه أكثر مما يأخذ منهم، فهو يمنحهم شعراً خالداً وهم يمنحونه عرضاً زائلاً"[٢]، لذا فهو لا يكفّ عن المطالبة بحقّه ،ومن ذلك قوله لكافور في أول قصيدة مدحه بها:

وغير كثير أن يزورك راجلٌ فيرجعَ ملكاً للعراقين واليا[٣]

الا ان كافوراً لا يُعيره اهتماماً، ولا يُلبي رغبته في جعله واليا، وانما على العكس من ذلك تماماً، لذا نراه يكرر عليه رغبته بجرأة أكثر مما كان في السابق، فيقول له:

أبا المسكِ هل في الكأس فضلٌ أنالهُ
فانّي أغنّي منذ حين وتشربُ
وهبتَ على مقدار كفّي زمانِنا
ونفسي على مقدار كفّيك تَطلبُ
اذا لم تَنطْ بي ضيعة أو ولايةً
فجُودك يكسُوني وشُغْلك يُسلُبُ[٤]

واشتد كافور عناداً وتصلباً، فيصرحَ له المتنبي بانه لا يريد منه مالاً، ولا ذهباً، وكل ما يريده هو الايفاء بوعده له :

وما رغبتي في عسجدٍ استفيده ولكنها في مفخرٍ أستجدّه[٥]

ولكن محاولات المتنبي كلها لن تجديه نفعاً، لذا أحس بخيبة الأمل ، واعترف أخيراً بأن الزمن لا يريد أن يُلبي له ما كان يسعى اليه لتحقيق غاياته السامية، فقال بكثير من الألم:

أهمُّ بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد[٦]

ان في ذلك كله أدلة أخرى تؤكد بطلان المزاعم التي حاولت الانتقاص من هذا الشاعر العبقري، ولا ننسى " ان نوازع المتنبي المختلفة، وشخصيته المتميزة المتسلطة أسهمت بقدر كبير في خلق طبقة من الحساد، يندر فيهم من يتخذ من موهبة الشاعر أو تكوين الفنان عذراً لظواهر غريبة بدت منه، وليس عجيباً أيضاً أن يكون حول المتنبي مبغضون كثيرون ، فقدرته على خلق الأعداء هائلة، وتعاليه الشامخ يقلق من يريد أن ينفرد أو يتميّز بشيء أمامه"[٧]، لذا كانت تهمة البخل احدى الوسائل التي حُورِبَ من خلالها المتنبي،

---

[١] مع المتنبي في شعره الخربي / ٢٩٤ .

[٢] فلسفة أبي الطيب (هل كان المتنبي فيلسوفاً؟) / ٢١ .

[٣] شرح ديوانه ٤/ ٤١٧ .

[٤] م.ن ١/ ٣٠٦ – ٣٠٧ .

[٥] م.ن/ ٢/ ١٣٠ .

[٦] م.ن ١/ ٣٩٢ .

[٧] المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته / ٣٩ .

كمحاولة يائسة من أعدائه وحساده، ظانين أنهم بذلك سيتفوقون عليه ، أو ربما يصبحون في درجة متساوية معه في الأقل .

ومع اعترافي بان الشعر ليس مرآة صادقة لحياة الشاعر، ولصدق تجربته ، وليس كل ما يقوله الشاعر من فخر بنفسه، وتعداد لصفاته الحسنة، يُعتدّ به في الحكم له حكماً ايجابياً، أقول: مع اعترافي بذلك كله أجد ان شاعراً مثل المتنبي يختلف عن غيره من الشعراء لسبب بسيط ، ألا وهو انه عبرّ عن دواخل الناس، وعن مشاعرهم، وتحدث بألسنتهم، عاكساً معاناتهم ، وأحلامهم، ليس ذلك فحسب، وانما دخل في اعماق مجتمعه الذي كان يحيا معه، فصورلنا أُناسه خير تصوير من جوانب عدّة، ربما يعجز عالم النفس في الوصول الى تلك الدرجة من الخبرة التي وصل اليها المتنبي، وذلك " لانه يعّبر عن تلك المشاعر الحادة المرهقة فيتجلّى صادقاً وأصيلاً في اللحظة التي يعيشها دون خداع أو مواربة"[١].

ان شاعراً يتمتع بهذه المزايا النادرة ربما يكون شعره صادقاً في تصوير نفسه، وحياته اكثر من غيره،إذ كيف يكون صادقاً في نقل تجارب الآخرين،ولا يصدُق في نقل تجربته هو؟

أريد أن أصلَ الى ان في شعر المتنبي ما يدل دلالة قاطعة على عدم بخله،بل بالعكس نجد في شعره ما يُثبت كرمه،ورفضه للأموال التي أتهم بحبه لها،وشرهه عليها،ومن ذلك قوله:

ومَن يُنفق الساعات في جمع ماله

مخافة فقر فالذي فعل الفقر[٢]

يرى المتنبي ان الانسان الذي يقضي عمره القصير في جمع الاموال، ليسلم من الفقر، يرى في ذلك الفقر بعينه، وذلك لأن من يفعل هذا الفعل سيحرم نفسه من التمتع بتلك الأموال، والمحروم لا يختلف عن الفقير في شيء.

وهو يؤمن ايماناً كبيراً بان كل الذي فوق التراب تراب مثله، لذلك كان يكتفي برضا ممدوحه عنه:

اذا نلتُ منك الودّ فالمالُ هَيّنٌ وكلُّ الذي فوقَ التراب تُرابُ[٣]

وهو يؤكد عدم حبه للمال في مديحه لفاتك المجنون ، فيقول له :

وما شكرتُ لأن المالَ فرّحني

سيّان عندي اكثارٌ واقــلالُ[٤]

وبطبيعة الحال، هذه الرؤية ليست رؤية الانسان البخيل.

وليس ذلك فحسب ، بل نجد المتنبي يزدري أخاه اذا لم يجده انسانا كريماً:

وأنفُ من أخي لأبي وأمي اذا لم أجده مــن الكرامِ[٥]

وفوق هذا وذاك، كان المتنبي يرفض أخذ المال بالذل، بل يتركه حين يشعر أنه يفقد كرامته بسبب ذلك المال:

ولا أُقيم على مالٍ أذلُّ بــه ولا ألَذُّ بما عِرضي به دَرِنُ[٦]

---

[١] الاصالة في شعر أبي الطيب المتنبي أصولها الدماغية وجذورها الاجتماعية في ضوء فسلجة بافلوف/ ١٠ .

[٢] شرح ديوانه ٢/ ٢٥٥ .

[٣] م.ن ١/ ٣٢٧ .

[٤] م.ن ٣ / ٣٩٧ .

[٥] م.ن ٤/ ٢٧٥ .

[٦] م.ن ٤/ ٣٦٩ .

وليس ذلك شعور البخلاء بالتأكيد، لأن البخلاء لا يفكرون في شيء من ذلك ، ويكتفون بجمع الأموال وإن كانت على حساب كرامتهم.

وختاماً أتمنى أن أكون قد وُفقتُ في توضيح جانب مهم من جوانب حياة المتنبي، وفي كشف الملابسات التي أحاطت بهذه التهمة، والتي بدت غامضة بعض الشيء، وتوصلت من خلال بحثي هذا ان المتنبي لم يكن بخيلاً في يوم من أيام حياته الحافلة بتحقيق الأمجاد، وأثبتنا ان ذلك من صنع مخيلة حساده وأعدائه، وذلك للحد من شأنه، ولكن هل تتمكن العواصف الشديدة من تحطيم الجبال العظيمة؟!

المصادر والمراجع

١- الأصالة في شعر أبي الطيب المتنبي أصولها الدماغية وجذورها الاجتماعية في ضوء فسلجة بافلوف، الدكتور نوري جعفر، مطبعة الزهراء ، بغداد ، ١٩٧٦ م.

٢- انباه الرواة على أنباه النحاة ، تأليف: الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبي الفضل ابراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠ م .

٣- أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين، الدكتور عبد الله الجبوري، جمهورية العراق، وزارة الثقافة والفنون، صدر بمناسبة مهرجان المتنبي، بغداد، تشرين الثاني- ١٩٧٧م، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٤- البخلاء للطيب البغدادي، تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب، الدكتورة خديجة الحديثي، أحمد ناجي القيسي، ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الاولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٥- جنون العظمة في المتنبي فضيلة خلقية ، طاهر أحمد الطناجي، في ضمن كتاب: (أبو الطيب المتنبي حياته وشعره)، مكتبة النهضة بغداد، ١٩٨٣م.

٦- رسائل أبي بكر الخوارزمي، لقطب دهره في الادب، وعنوان عصره في الفصاحة والبلاغة، قدوة الأدباء، ومحط رجاء العلماء أبو بكر الخوارزمي، مطابع دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠م .

٧- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، جمال الدين بن نباتة المصري، تحقيق: محمد أبي الفضل ابراهيم، مطبعة المدني، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

٨- سكردان السلطان، لابن أبي حجلة المغربي(ت ٧٧٦هـ) ، احمد بن أبي بكر التلمساني، المطبعة الأدبية، القاهرة، ١٣١٧هـ، على هامش كتاب المخلاة للعاملي بهاء الدين .

٩- شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت .

١٠-الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، للبديعي (ت ١٠٧٣هـ)، تحقيق : مصطفى السقا، محمد شتا، عبده زيادة عبده، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م .

١١-فلسفة أبي الطيب (هل كان المتنبي فيلسوفاً؟) ، أحمد أمين ، في ضمن كتاب: (أبو الطيب المتنبي حياته وشعره)، مكتبة النهضة بغداد، ١٩٨٣م.

١٢-المتنبي فارس الفكر العربي، عبد المجيد لطفي، الجمهورية العراقية، وزارة الاعلام، صدر بمناسبة مهرجان المتنبي، بغداد، تشرين الثاني، ١٩٧٧م، دار الحرية للطباعة ، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.

١٣-المثال والتحول آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته، د. جلال الخياط، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

١٤-مع المتنبي في شعره الحربي، د. هاني نهر، ساعدت الجامعة المستنصرية على طبعه، طبع بمطبعة الجامعة، بغداد، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩م .

١٥-مواسم الادب وآثار العجم والعرب، للسيد جعفر بن محمد البيتي العلوي (١١٨٢هـ)، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٦هـ.

١٦-نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، المحسّن التنوخي (ـ ٣٨٤هـ)، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣ م.

١٧-الوافي بالوفيات، صلاح الدين بن أيبك بن عبد الله الصفدي(ت٧٦٤هـ)، تحقيق: س، ديدرينغ، مطبعة صادر - بيروت ، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .

١٨-يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل، الثعالبي (ت ٤٢٩ هـ) ، حققه وفصله وضبطه وشرحه محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٧٧ هـ .